## الذاتية عند "المازني"

الفن القصصي في حاجة إلى شيء من الموضوعية ، والتي بدونها لا يستطيع هذا الفن الوقوف على قدمين ثابتين ، فهنا لا وجود للقاص ولا أثر له ولا حتى في إملاء رؤياه على شخدياته ، وإن حدث تدخل من نوع ما من القاص في إجبار شخصية من الشخصيات بإتخاذ سلوك معين لا يتفق والتكوين المزاجي والنفسي الذي رسم لها منذ البداية ، أولا يتوازي مع هذا المنطق الذي يجمع جزئيات العمل ككل ، يعتبر مأخذ يؤاخذ عليه القاص .

وكل ما يفعله القاص في هذا المجال هو مجرد إعطاء الفرصة لشخصياته لتعبر عن نفسها ، وتنهج الطريق الذي تسير فيه وتختار هذا الأسلوب ، أو النمط الذي يجعل لكل شخصية من الشخصيات لونا يميزها عن بقية الشخصيات ويخلق لها التفرد والاستقلال والنمو التلقائي ، ومعهم تنمو ملامحها و سماتها وتكتسب تلك الملامح وضوحا بحيث تستطيع أن تجعلها أنموذجا تجد له أمثلة كثيرة فيما حولك في الحياة من شخصيات من دم ولحم ، ومثله في ذلك – القاص مثل الزارع الذي يضع البذرة في الأرض ويمدها بالماء والغذاء ولا يتدخل بعد ذلك ومن الضروري أن يكون القاص على بصيرة وهو يعمل ، فيجب أن يعطي لشخصياته مطلق الحرية مضحيا بذلك بوجوده وتأثيره على مسرح الأحداث حتى لتجد في القصة شخصية على النقيض من تفكير واعتقاد القاص ، والقاص يحترم فيها تلك المخالفة في الرأي والاعتقاد ، فهو وإن كان الخالق لها أو المبدع إلاّ أنه ليس المسيطر عليها ، أو من يملي عليها أنماط معينة في الاستجابة

للإحداث التي يخلقها لها . وهذا ما يعطي للعمل الفني الثراء والتنوع والتفرد ويجعل لكل شخصية استقلالها الذاتي .

"ومن خلال هذا التنوع والتفرد والاستقلال لكل شخصية ، تختلف استجابات الشخصية لجزئيات الواقع المعاش ، كما يختلف الصدى الذي تتركه الحياة على كل شخصية ، وهذا يحدد بدوره الطريقه التي تتعامل بها مع بقية الشخصيات في حياتهم اليومية .

وكل هذا يعطي للقارئ إحاطة شاملة للواقع بكل جزئياته ، ويراه بأكثر من لون ، ويتذوقه بأكثر من مذاق ، كما انه – الواقع – يأخذ صورة أرحب مما لو اعتمد الإنسان على نفسه بصفة منفردة للإحساس بالوجود ، بدون مساعدة الفن القصصي وشخصياته . فالإنسان في شوق أن يعيش أكثر من حياة ، يخوض غمار تلك الأنواع الكثيرة من الحيوات ، ويلج تلك المناجم المسجورة من المشاعر والإحاسيس ، التي تشعر بها الشخصيات ، وبذلك يعطي لحياته امتدادًا ، ويزيدها عمقا من خلال تلك التجارب التي يعايشها مع شخصيات القصة .

والقارئ لا يهتم بالقاص إلاَّ من خلال هذا الكم المتنوع من الشخصيات وذاك النسج المحكم من القصص ، والعدد الكثير من التجارب التي تتعرض لها الشخصيات ، وكما اختفى القاص من مسرح الأحداث ومحى أثره متعمدًا مطالب – أيضا – أن يختفي من أمام القارئ ، وأن يكون أثره بسيطا لا يكاد يرى أو يحس ، وهذا هو الفرق بين الفن الشعري والفنن القصصي ، ففي الشعر يختفي كل شيء إلاَّ الشاعر نفسه ، فأنت غارق لأذنيك في عالم الشاعر الخاص به ، أما في الفن القصصي فيظهر كل شيء إلا القاص ، فليس له وجود ، وأحداث القصة

تموج في عوالم كثيرة ومتعددة لا تمت لعالم القاص بصلة ، وإن كان يعرضها أمام القارئ وكأنها عالمه المعاش ؛ ذلك لأنه ملم بادق ملامحه ، ومحيط علما بأخص نوازعه ، ومستبطن لشخصياته ، وهو إذ يعبر عنها بصدق تعبيره عن نفسه ، والأمر هنا ، في حاجة إلى ذكاء وحرص وحذر من القاص .

ذكاء : أن يقف هذا الموقف الذي من خلاله يرى ويعرض كل شيء بموضوعية تامة .

وحرص : بأن لا تطمس تلك الموضوعية أدق ملامح وأخص نوازع العالم الذي يعرضه بشخصياته .

وحذر: أن تعكر ذاتيته ذاتية صفاء الجو الذي تعيش فيه الشخصيات .

وقد لا يستطيع القاص – رغما عنه – أن ينتهج الموضوعية في كتابة قصصه ولا يستطيع أن يتخلص من أسر ذاتيته ولو إلى حين ، فهو دائما مأسور لا يستطيع أن ينفذ من جدران عالمه الخاص ليعايش عوالم أخرى ، وهذا راجع إلى شدة إلحاح عالمه الخاص عليه ، من أثر تلك التجارب القاسية التي تعرض لها ، وأثرت عليه أبلغ تأثير وملأت عليه سمعه وبصره ، فلا يرى غيرها ولا يسمع إلاَّ صوتها .

وهذا ما هو حادث مع (المازني) ...ففي كل قصة من قصصه سواء القصيرة منها أو الطويلة ، تجد المازني بلحمه ودمه هنالك لا يبرح مكانه ، وتجده الشخصية المحورية التي تدور حولها بقية الشخصيات ، وهي التي تحرك كل الأحداث ، وكل ما تراه أمامك مدموغ بخاتم المازني ، بل قد تجد بعض الشخصيات يحملها المازني بعض صفاته الشخصية وبعض أرائه الفلسفية ، فهو مشغول بنفسه عن أنفس الآخرين ، وعالمه يلهيه عن تأمل عوالم الاخرين ، وليس أدل على ذلك من أنه

قد عنون قصتين من قصصه أحداهما باسم ( إبراهيم الكاتب ) والثانية باسم ( إبراهيم الثاني ) . والشخصية في الأولى هي التي في الثاني – مع اختلاف طفيف – وهي شخصية المازني ...شخصية الكاتب الأديب الذي يعتز بقلمه ، ويتيه فخرًا وعجبا ، ويجعل الآخرين ينظرون نظرة احترام وتوقير ؛ لأنه من حملة القلم ، اعتزاز لا حد له بالذات وهذا الاعتزاز جعله يضرب صفحا عن كل ما سوى عالمه الذاتي حتى شخصياته تحيط بهم أنانية لا حد لها ، يسبحون في هلامية ذاتية تشبح كل قيم الوجود الموضوعي حولهم .

وهو – المازني – لا يستقي مواد وأحداث قصصه من العالم الواقعي ، فعالمه الذاتي يمده بكل ما يحتاجه لفنه . والكون كله محصور في ذاته ونفسه ، فهي نبع دافق ثر لا ينفد أبدا . ما قصدد يوما وعاد صادي الفؤاد أو خالي الوفاض ، وماله ودنيا الناس ومشاكلهم وما يخوضون فيه من رغبات دنيوية ، يستنكف أن يسجلها على صفحت قصة له ؟ فحسبه نفسه ، يقول في صفحة ( ١٣ ) قصة ( إبراهيم الكاتب ) متحدثا على لسان شخصية ( إبراهيم الكاتب ) " على أن أبرز مزاياه كانت أن أسلوبه صورة لنفسه الحية الحساسة المتوقدة وكان دأبه أن يدور بعينه في نفسه ليطلع على كل ما فيها وأن يجعلها فيما هو خارج عنها ليحيط بكل ما وراءها . ولكنه قلما رأي شيئا خارجها إلا من خلالها " .

ويقول في نفس القصة صفحة ( ١١٣ ) : " لأني لا أزال أنظر إلى الأشياء من وجهة شخصية أنانية ( أنا ) دائما . و( أنا ) في كل شيء ، " وفي اول صفحة يهدي القصة إلى نفسه ، فيقول " إلى التي لها أحيا وفي سبيلها أسعى وبها وحدها أعني طائعا أو كارها إلى نفسي ".



Obeikandi.com

ويقول في ( قصة حياة ) صفحة (١٠٨) متحدثا عن نفسه " مغرى بإدارة عيني في نفسي والغوص في لجتها على ما عسى أن يكون فيها من طيب وخبيث "

ذاتية مفرطة عدها بعض النقاد عيبًا في أدب المازني ، لاسيما في قصصه وشخصياته والتي تكتسب أهمية أو توحي بالضاءلة ، بمقدار أهميتها لدن القاص أو هوان شأنها .

ولكن نحن لا نحكم على مثل تلك الأمور بالعيب أو النقص ، فتلك ظاهرة من ظواهر ادب المازني ، ويجب أن يعتد بها ؛ لأنها تكشف عن سمة من سمات شخصيته التي لها تأثير لا ينكر على أدبه ، فنحن نقف بإزاء تلك الظاهرة – وغيرها من الظواهر – لنبحث عن بواعثها ، ثم لنحدد نتائجها بعد ذلك .

والذي يفسر ويوضح ظاهرة الذاتية عند (المازني) ، ظاهرة أخرى وضحت وضوحا شديدا لديه ، وهي ظاهرة (التمرد) ، فهو متمرد على كل ما حوله ؛ ذلك لأن كل ما حول الإنسان من أنظمة وقوانين وعادات وتقاليد وعرف يهدفون إلى إلغاء ذاتية الإنسان الفرد ، وجعله يذوب ويختفي في المجموع ، وإذا ما تم ذلك لم يعد للإنسان قيمة ، فما قيمة قطرة وسط تيار متدفق من المياه ؟ وما وزن ذرة وسط شعاع نافذ من الضوء ؟ وسط هذا المجموع – الذي يلغي للإنسان للإنسان أثمن ما يملكه أو يمكلك التصرف فيه ، وهو ذاته ووجوده – يشعر الإنسان بالضياع والغربة ،فهو يعطي للمجتمع الكثير ، وقد لا يأخذ حتى القليل ، وما قيمة الخذ بعد تنازله عن كونه إنسانا ؟ ويزيد هذا الشعور وضوحا مع من يكونالشعور بالظلم متأصلا لديه منذ الصغر ، فيكون لديه ما يشبه الدفاع الذاتي ،حفاظا على كيانه

ووسيلته في ذلك التمرد على كل ما من شأنه أن يصهر تلك الذات الإنسانية أو يغض منها .

وأسباب شعور الإنسان بالظلم كثيرة ، منها التجارب التي خاضها على طول مشوار حياته ، أو هذا الشكل الذي منح إياه ،إلى جانب ضيق ذات اليد وكل تلك الأمور متوافرة مع أديبنا ، فلا سلطان ولا جاه ولا شكل ولا منصب اللهم إلاَّ كونه إديبًا ، وقد فعل كل ما في طوقه ليبين أنه يستحق هذا اللقب عن جداره ، ليغب عن باله هذا ، فهو عوضا له عن كل ما لم يستطع أن يمتلكه وما ضاع منه بعد ان كان في حوزته ، ولكن للأسف .. حتى هذا اللقب أو الصفة الذي كان يعلق عليها آمالاً كبارًا ، لم يبلغ به الهدف الذي كان يصبو إليه ، مما جعله يعتقد أن كل شيء في الوجود (قبض الريح ) و (حصاد الهشيم).

تقول رجلا ينقصه التواضع وإن كان لا ينقصه الكبر أن يكون به كبر ) .

فهو لا يكتفي أن يعطي بل يسرف في هذا التقدير ، ليصل به الأمر إلى الكبر وكيف يعطيها قدرها فقط ؟ أليس هو بالمتمرد ؟ فكل ما حوله يريد أن ينتقص منه ، فليتمرد على هذا بأن يعطيها فوق ما تستحق .

تقول سلوب في القصة وأراه أعون لي على تمثل ما أحاول وصفه وتصويره ) .

فهو يجد متعة في استخدام ضمير المتكلم لأنه يحقق له ما يريده من شعور بالذات وبأن وجوده يملأ عليه حواسه .

هذا الالتصاق الشديد بذاته يجعله يستلهم كل القيم والمعايير منها وليس من خارجها ، ويرى كل ما حوله من خلالها .

ولتجدن أقرب الناس إلى الصدق، وأخلصهم في التعبير عن أدق خوالج النفس الإنسانية، والتميز بين تلك المشاعر المتصارعة والمتناقضة، من كان يستلهم ذاته ولا يشرك بها أحد؛ لأنه درج على السير في أودية النفس المتشعبة والبحث في كهوفها المظلمة المدلهمة، والتنقيب في مناجمها المسجورة، فقد دأب على تسهيل حزنها، وتلين أوابدها، وحل طلاسمها، وفك رموزها، وكشف أسرارها، والقاص هنا لا يبحث عن عوالم أخرى، فبين جنبيه عالم زاخر، وعليه أن يقترب أكثر وأكثر منه ليأخذ الكثير ومن كان هذا شأنه مع ذاته، فهو يتعامل معها من منطلقين.

**الأول**: الإسراف عليها في التقدير والعلو إلى درجة الكبر والغرور، وهو على حق في هذا من وجهة نظره، فهو لا يرى سواها أمامه/ مثله في ذلك مثل الأب الذي لم يرزق سوى بابن واحد، فيسرف في تدليله وإكباره، فالعالم كله مختزل في هذا الابن.

**يقول على لسان (إبراهيم الثاني) صفحة (٩٧) مخاطبًا (ميمي) ومبررًا ظاهرة الغرور الإنساني**:(والغرور فيما يرى الناس رذيلة، ولكني أراه نعمة أو على الأقل القدر الكافي منه لإطاقة العيش، وأنت كغيرك لابد أن يكون لك شعور بنفسك وإلاَّ كنت كالحيوان الأعجم الذاهل عن نفسه، وعن الدنيا والإنسان يصاحب الحيوان ويبادله قدرًا من الود والاحساس – ولكنه لا لذة له في مصاحبة إنسان مثله إذا كان معدوم الإحساس بنفسه، وأحسبك تتكلفين هذا الذهول، وإنه لتواضع أو أدب منك جميل، ولكن الإفراط في تكلفه يخرج بك عن حد الطبيعة القديمة التي تعترف بهذا التجاهل التام للنفس).



obeikandl.com

فتقول : ( ولكني كما تقول مغرورة . وحظي من الغرور أوفر مما تظن ولكن هذا لا يدعو إلى الاثقال على الناس .

فيقول : إذا قلت لك بلهجة المؤمن بما يقول . المخلص فيه . إنك دميمة أفلا يسؤك هذا ؟

فتقول : نعم ولكنك لست الناس جميعا والذي تراه قبيحا قد يراه غيرك جميلاً أو حميدًا .

فيسره منها هذا الأسلوب في تناول الأمور والنظر إليها من اكثر من وجه واحد لتسهل به وتهون فيعود ويقول:( قياسا على هذا يسرك أن تسمعي من رجل أنك جميلة ) .

فتقول : ( طبعا . ويزيد في سروري أن يفيض في ذلك ويبدئ ويعيد حتى ولو لم يكن مخلصا ) .

فهو يرى الاسراف في التواضع نوعمن الشذوذ والخروج عن الطبع القويم لأنه في مفهومه يعتبره ضعه ودناءة وامتهان للذات . لأنه لو تواضع للآخرين فلن يحمدوه لك . وسيرون أن تواضعه هذا هو مكانه الحقيقي الأليق به . فلن يحمدوا له هذا التواضع ولن يزيد احترامه في نفوسهم . بل قد ينزلونه منزلا أقل مما أنزله نفسه تواضعا منه .

فهذا نوع من شدة الإحساس بالذات والخوف عليها والقلق من أجلها والحرص عليها .

**الثاني : الظهور بمظهر القوة والقدرة،وهذا المنطلق مترتب على ما قبله ؛ لأنه إذا كان يسرف في تقديرها ، فمن الضروري أن يكون على حق في هذا وأن**

تستحق الذات هذا الإكبار والتقدير، وكيف تكون كذلك إذا لم تكن متوافرة فيها كل صفات القوة، خالية من كل صفات الضعف والهون ؟

تقول ( ليلي ) وهي تصفه في قصة ( إبراهيم الكاتب ) أثناء حديثها مع الشيخ (على) :

( وأنه من الطراز الذي يهون عليه أن يمشي إلى الجحيم ولا يهون عليه أن يتلفت أو أن يرى الناس فيه ضعفا أو يحسوا منه الحنين إلى ما صرف نفسه عنه ) .

ويقول الشيخ ( على ) في صفحة (٢٤٧) مخاطبا ( ليلى ) التي أحبها ( إبراهيم ) أثناء وجوده بالأقصر ( لا يخدعك ظاهرة الساكن إنه بئر لا قرار له لا أعني أنه كاذب أو غاش ولكنما أعني أن ما يدفنه في صدره لا ينشر، وهو قاس جدًا على نفسه ... مجنون إذا شئت ولكنه جنون رائع لأنه جنون الإرادة القوية ) .

قاس على نفسه ؛ لأن تلك القسوة هي السبيل لردع النفس عن غيها، لتكون الإرادة قوية، ولتصنع جدرانا قويا لحماية الذات من التبذل والاسفاف، ولتظل النفس في مكان عال، بعيده عن كل ما من شأنه أن ينال من مكانتها .

وتقول ( ليلى ) في رسالة أرسلتها إلى إبرهيم الكاتب بعد ما حدث الفراق بينهما إثر مكاشفته بماضيها الذى لم يرض إبراهيم عنه :( فإن كثرة التفكير قد أشابت نفسك ثم أنك طماح أو أظنك توافقني على أن الطماح مضن للنفس متعب للعقل وسواء أكان أم لم يكن كما أعتقد أن فإني أشعر أن الطماح لا محل له في هذه البلاد الجميلة ) .

obeikandl.com

وتجد الاعتداد والاعتزاز بالنفس وكثرة الاسهاب في هذا مبثوثة في كل ما كتب المازني سواء على لسانه أو لسان شخصياته ... فلا تمر مناسبة إلا وأنطق شخصياته بتلك الأوصاف التي هو عليها.

ومن كان يتصف بتلك الصفتين، ويحمل نفسه على التحلي بهما، يصاب بشيء من القلق والتوتر الناتجان عن المحاولة الدائمة لتوطين الذات على السير في هذا الطريق.

وكل قصصه تجد المحاولة المبذولة لخلق الانسجام المعدوم بين الذات والوجود بين الذات بكل يقظتها ووعيها وإرادتها وتطلعاتها وبين الوجود بكل عتامته وجموده، ولاعقلانيته، وحينما استحال عليه إيجاد هذا الانسجام أو التوازن بين ذاته والوجود، حاول أن يفلسف هذا الوجود حتى يستطيع قبوله على أي شكل من الأشكال ليتيسر له بعد ذلك معايشته.